دور الرحلة ومساهمة عباد ونساك رباط أكلو في قيام دولة المرابطين ونشر الثقافة الإسلامية في الجنوب المغربي*

الأستاذ : محمد الطوكي

كلية الآداب مراكش

إضـــاءة وتنويـــر :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد القائل في خطبة حجة الوداع: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحتقرون من أعمالكم..

السيرة النبوية. تحقيق السقا ومن معه مج 2 ص. 604.

أرجو أن يكون هذا الاستهلال مناسبا للنص الذي سأتناوله بالتحليل. فمن ذلك النص استوحينا هذه المداخلة.

أيها الحضور الكريم إن الديانة الإسلامية قد غطت أقاصي جنوب سوس منذ أواخر القرن الأول[1]، بيد أنها أخذت تتراجع تدريجيا أثناء القرن الثالث ليبلغ ذلك التراجع حده في القرن الرابع. وقد استردت الحنيفية بياضها ونصاعتها في تلك المناطق على يد عباد ونساك سوس. وسوس في أعمال

*- مداخلة لم يسبق نشرها، شاركت بها في الأيام الدراسية حول التصوف في الجنوب المغربي. تكريما للعلامة محمد المختار السوسي. تيزنيت أيام من 1 إلى 3 سهر يوليوز 2005.

[1]- محمد المختار السوسي : سوس العالمة، طبعة مؤسسة بنميد الدار البيضاء، د. ت، ص : 16.

المختار السوسي هي الممتدة من سفوح درن الجنوبية إلى حدود الصحراء من وادي نول وقبائله من تكنة واركيبات وما إليهما إلى حدود طاطة وسكتانة.

ولنرجع إلى عنوان المداخلة فقد وردت فيه كلمتا ناسك وعابد، فما هي دلالتهما؟ ولماذا استعملتهما بدل اصطلاح تصوف؟

ورد في لسان العرب: العبد الإنسان حرا كان أو رقيقا، يذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه جل وعز. قال سيبويه هو في الأصل صفة قالوا رجل عبد، ولكنه استعمل استعمال الأسماء، والجمع أعبد وعبيد وعباد وعبد.

وأصل العبودية الخضوع والتذلل، وفي الحديث "لا يقل أحدكم لملوكه عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي". والعبادة الطاعة [2].

وإذا فالعبودية في مجال العقيدة تعني الجزم بوحدانية الله تبارك وتعالى، والخضوع والتذلل له وامتثال أوامره.

أما النسك فيعني أيضا الطاعة والعبادة وكل ما تقرب به إلى الله. فنسك وتنسك كما في اللسان تعبد، والناسك العابد. وقيل للمتعبد ناسك لأنه خلص نفسه وصفاها لله تعالى من دنس الآثام، كالسبيكة المخلصة من الخبث والشوائب. فالنسك مرتبة جليلة من مراتب العبودية وسئل ثعلب عن الناسك من هو؟ فقال: هو مأخوذ من النسيكة وهي سبيكة الفضة المصفاة، كأنه خلص نفسه وصفاها لله عز وجل [3].

---

[2]- ابن منظور : لسان العرب مادة عبد.

[3]- المصدر السابق مادة نسك.

آثرت استعمال لفظتي العابد والناسك في عنوان هذه المداخلة؛ نظرا لأن المصادر التي ترجمت للأعلام الذين وردوا في النص الذي سأحلله عاشوا جميعا في القرن الخامس، وقد نعتوا في المصادر المعاصرة لهم أو القريبة من عصرهم[4]، وحلوا بالفضل والفقه والتقى والورع والتعبد والنسك والإقراء؛ وهذا ما دعانا إلى العدول عن استعمال كلمة تصوف بمعناها الاصطلاحي فهي لم تتواتر بعد في الفضاء الذي يعنينا.

- النص الذي سنعنى بتحليله.

يقول صاحب الحلل الموشية عن لمتونة :

"والموجب لخروجهم من الصحراء إلى وطن المغرب، أن أحد بني جدالة، ويعرف بيحيى بن إبراهيم، كان قد توجه لأداء فريضة الحج، واجتاز في إيابه على مدينة القيروان، وذلك سنة أربعين وأربعمائة، فحضر بها مجلس الفقيه المدرس أبي عمران الفاسي، فسأله عن قبيلته ووطنه، فذكر له أنه من الصحراء من قبيلة جدالة إحدى قبائل صنهاجة، فقال له الفقيه: ما مذهبكم؟ فقال له: ما لنا علم من العلوم، ولا مذهب من المذاهب لأننا في الصحراء منقطعون لا يصل إلينا إلا بعض تجار جهال، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء، لا علم عندهم، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن،

4- سنحيل على المصادر التي ترجمت للشخصيات الواردة في النص في المكان المناسب من هذا البحث.

وطلب العلم، ويرغبون في التفقه في الدين، لو وجدوا إلى ذلك سبيلا، فعسى يا سيدنا أن تنظر لنا من طلبتك من يتوجه معنا إلى بلادنا ليعلمنا ديننا.

فقال له الفقيه: سأنظر لك في ذلك إن شاء الله تعالى، فعرض الفقيه الأمر على الطلبة، فلم يوافقه أحد، لبعد الشقة، والانقطاع في الصحراء، فدله الفقيه على رجل من فقهاء المغرب الأقصى، مستوطن بالسوس، يدعى وكاك بن زلو، مشهورا بالخير والعبادة. كانت بينهما قراءة ومعرفة، فخاطبه في القضية، وأكد عليه في المشاركة فيها. فلما وصل يحيي بن إبراهيم المذكور، اجتمع به، ودفع إليه كتابه، فرحب به، وأكرمه، واختار له رجلا يعرف بعبد الله بن ياسين الجزولي، من طلبة الشيخ المذكور، وأرسله معه، ودخل إلى الصحراء إلى بلاد جدالة، وهو مع يحيى بن إبراهيم.

وكان عبد الله دخل الأندلس في دولة ملوك الطوائف، وأقام بها سبع سنين، يلازم القراءة، فحصل علما كثيرا، وعاد إلى المغرب الأقصى.

فسار معه إلى قبيلة جدالة ففرحوا، واجتمع عليه منهم نحو سبعين شيخا من فقهائهم، وأهل الخير منهم، ليعلمهم ويفقههم في دينهم، فانقادوا إليه انقيادا عظيما، وأولوه برا وتكريما، ولازموه مدة طويلة".

كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري. تحقيق: د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة.نشر دار الرشاد الحديثة، ط I، 1979 من ص 19 إلى 21.

التحليـــــل :

مصدر هذا النص الذي يدور حول بداية الدعوة المرابطية هو كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. لم يهتد الأستاذان المحققان سهيل زكار وعبد القادر زمامة إلى الاسم الكامل لصاحبه، وتحاشيا من الرجم بالغيب فقد اكتفيا بنسبته هكذا .. لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، والنص عبارة عن تدوين لرواية شفوية كانت حتى زمن المؤلف ذائعة على ألسنة البيضان والسودان من ساكنة تلك الصحاري الواقعة في جنوب سوس. وبما أن المؤلف مجهول والأخبار المروية عن المجاهيل تؤخذ بالكثير من الحذر، ولهذا فإنها تكون مثيرة للإشكال ودافعة إلى البحث عما يملأ ذلك الفراغ المقلق؛ ولهذا فسنعمد في تقويته إلى طرق أخرى تدحض ما قد يعتريه من ظنون. فمما يقوى هذا النص:

1- إن المؤلف ينقل من مصادر بعضها لم يصل إلينا والبعض الآخر وصل ككتاب الجغرافية لمحمد ابن أبي بكر الزهري[5] الذي يروي عنه كثيرا.

2- إن أبا عبيد البكري (ت 487 هـ) من بين مصادره أيضا فهو شاهد على الفترة ومعاصر لها، وقد أورد هذا الخبر[6] ورواه بطريقة أخرى لا تختلف

---

[5]- محمد بن أبي بكر الزهري : الجغرافية، نشر في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق، العدد 21 – سنة 1978 ص : 182 وما يليها.

[6]- أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، د. ت. ص : 164-165. ونفس الرواية نقلت عن ابن الصيرفي (ت 557 هـ) وكتابه مفقود.

في خطوطها العريضة عما جاء في الحلل الموشية. وكتاب أبي عبيد "المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب" وصل إلينا.

3- ونقلت هذه الرواية بطريقة أو بأخرى في المصنفات التاريخية الخاصة بالقرن الثامن وما بعده[7]، ومنها سرت إلى المراجع التاريخية المهتمة بالتاريخ الوسيط في العصر الحديث. فكل من أوردها فهو مسلم بها لاعتبارات نقدية أقنعته بمصداقية النص فهنا إجماع ضمني على سلامة الخبر وصحته.

وإذا كان المستشرق الفرنسي هنري تيراس يسمي هذه الرواية أسطورة ذهبية فإننا نردد مع الأستاذ عبد الله العروي أنها إذا كانت أسطورة ذهبية فليست بأي حال من الأحوال أكذوبة. فالأسطورة حاملة لمعطيات الواقع، إلا أنها تعمل على تخييله وتجريده، "لكن تقليدها في كل أطوارها هو بالضبط سر نجاحها[8]".

وقراءتنا هذه، المقلدة لجميع أطوار هذا النص، ستجمع بين البعد الأدبي، المتمثل في كيفية <u>حكاية</u> الخبر كجنس أدبي، والبعد التاريخي الذي يعنى بالوقائع التاريخية. وهكذا فسنحاول استثمار رموز هذه الرواية واستنباط ما تختزنه إيحاءاتها من وقائع تاريخية.

7- انظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي والقرطاس وابن خلدون والناصري.

8- عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي بيروت، ط الأولى، 1994، ج 2، ص : 113.

فمن الوهلة الأولى يتحدث النص عن الأصل الصحراوي لدولة المرابطين، فمن أعماق تلك الفيافي "ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام [9]" سيقوم يحيى بن إبراهيم لكدالي[10] برحلة حجازية، أي أنه سيتوجه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وبما أنها رحلة فإن الأفعال المهيمنة في النص تدل على الحركة، فلا يكاد يحيى يتوقف في محطة إلا ويدفع إلى زم رحاله إلى محطة أخرى.

ففي المرحلة المتعلقة بذهابه إلى مكة نجد النص يومئ إليها بجملتين موجزتين، فلم يتطرق النص إلى المسالك التي قطعها يحيى بن إبراهيم، ولم ترد أية إشارة إلى الممالك التي مر أو نزل بها وهو في طريقه إلى الحج، ولم يشر إلى الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو المذهبية أو الثقافية في تلك المناطق، ولم يتطرق إلى ما اعترضه من غرائب الأحداث وهو يخترق تلك الآفاق، فكأن لم يوجد ثمة ما يثير أو يجذب الانتباه في ذهابه. والصمت لا يعني عدم انفعال أو تفاعل شيخ كدالة مع ما كان يشاهد ويصادف. فهاهنا فجوة استلزمتها طبيعة الحكي وعلينا بصفتنا قراء أن نملأها بالمناسب من الوقائع التاريخية الموثوقة.

إن رحلة يحيى بن إبراهيم الحجازية سترسخ عقيدته وسيزداد بها يقينا وإيمانا وإحسانا، كما أن ما شاهده من واقع المغرب والمشرق سيساهم ولاشك في إغناء خبرته السياسية وسيعمق وعيه بمشاكل منطقته. وخروج الإنسان عادة من مجاله المعتاد المألوف إلى فضاءات غريبة عنه مدعاة للمقارنة، وخاصة إذا كان

---

[9]- الحلل الموشية، ص : 17.

[10]- كدالة ولمط ومسطوف ينتسبون جميعا إلى صنهاجة.

الرحالة من صنف زعيم وشيخ قبيلة كدالة العظيمة الذي سيكون ولاشك فكرة لما ينبغي أن تكون عليه صنهاجة الغربية، فهذه منافستها "صنهاجة الشرقية قد عرف عنها إبان رحلته أنها سائدة على تونس حيث قامت دولة الزيريين بالقيروان والمهدية، وسائدة على الجزائر حيث قامت دولة بني حماد بقلعة بني حماد أولا ثم بمدينة بجاية ثانيا، وسائدة على جهات من الأندلس حيث كان بنو حمود الصنهاجيون يهيمنون على شرق الأندلس... وكانت صنهاجة الغربية التي ينتمي إليها يحيى تخشى في أول الأمر أن تسود صنهاجة الشرقية فتستولي على المغرب الأقصى والأندلس ثم تنحدر إلى الصحراء[11]".

كما كان المذهب المالكي السني، أثناء توجه يحيى إلى الحجاز، يتغلغل شيئا فشيئا في المغرب ويصارع مجموعة من النحل والتيارات السياسية والمذهبية. هذا عن الغرب الإسلامي.

أما في المشرق فقد صادفت رحلته بداية دحض الدعوة الفاطمية وإرساء مذهب أهل السنة والجماعة الذي سيتمذهب به غالبية المسلمين. وينبغي أن نعلم أن العباسيين قد اعتمدوا في إرساء قواعد المذهب السني على الأشاعرة في الشرق، وعلى مالكية القيروان في الغرب الإسلامي، ففي الوقت الذي قام أبو بكر الباقلاني (ت 404 هـ)، قاضي المالكية الأشعري، بدور مهم في

---

[11]– عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب من القرن 6 إلى القرن 19، جامعة الدول العربية 1958، ص : 42.

ونعتقد أن تدبير دولة صنهاجة الشرقية للشأن العام سيستهوي يحيى الكدالي، وسيصبح مثالا يقتدي أمراء صنهاجة الغربية فيما بعد.

تثبيت قواعد المذهب الأشعري في المشرق، فإن تلميذه أبا عمران الفاسي[12] (430 هـ) لم يأل جهدا في إقامة أركان المذهب المالكي في المغرب.

هذا عن واقع الغرب الإسلامي والشرق الأقصى إبان رحلته. فما هو الوضع في مضارب يحيى بن إبراهيم في هذه الفترة؟

يظهر أن الثقافة الإسلامية في جنوب منطقة سوس عند خروج يحيى بن إبراهيم خلال الرابع الأول من القرن الخامس الهجري، كانت قد تراجعت بسبب الحروب بين صنهاجة الجنوب وملوك الزنج، لقد كانت تلك الحروب سجالا بين الطرفين، إلا أن حروب أواخر القرن الرابع وما بعده كانت في صالح زنوج غانة؛ مما أرغم صنهاجة على التراجع شمالا بعد أن نزحت زناتة إلى المغرب الأقصى، وفرغت فيافي المغرب الأوسط من سكانها، ينضاف إلى ذلك أن الابتعاد عن الأمصار مقر العلماء والفقهاء والتوغل في الجنوب والاختلاط بالزنوج الوثنيين أدى إلى ضعف ما تبقى من رسوم الدين ولم يبق منها إلا بعض المظاهر[13].

إن ملأنا لهذه الفجوة التي لم يشر إليها النص، وهو يومئ إلى حج يحيى بن إبراهيم، كان لابد من استحضار ماجرياتها فهي التي أكسبته كما يقول ابن خلدون عقلا زائدا، وهي التي ستعمل على نقل الخاطرة الإصلاحية التي كانت لدى يحيى إلى مستوى الفكرة المستوية.

---

[12]– عبد الله العروي : المرجع نفسه، ص : 112.

[13]– عبد الله العروي : المرجع نفسه، ص : 113.

كما أن تلك المجريات هي التي ستنير لنا بقية النص التي تبتدئ الفقرة الثانية منه بتوقف يحيى أثناء رحلته الحجازية بالقيروان. ومرة أخرى طويت مرحلة ما بين الحجاز لغاية وصوله إلى افريقيا، فلم يشر النص إلى شيء من وقائعها لا من قريب أو بعيد. فهذه أيضا فجوة جعلت بعض المؤرخين يحزرون بأن فقهاء مكة والمدينة بادروا بالاتصال بيحيى، وعرضوا عليه مرشدا يعرف قبيلته بشؤون السنة. فإدا سلمنا فرضا، ومن حق المتكلم في التاريخ أن يفترض بأن هؤلاء الدعاة كانوا يرغبون في تعليم ساكنة المغرب أصول الدين والعبادات والمعاملات، فإن تيارات سياسية دينية أخرى مضطهدة في المشرق، كانت تتطلع إلى تصدير نحلتها وان تجد لها منطقة نفوذ في الغرب الإسلامي النائي عن سلطة ومراقبة العباسيين. ألم ينتبه زعماء الحركة الشيعية في المشرق على أهمية الغرب الإسلامي، فاختاروا لهذه المهمة الصعبة من صنعاء أبا عبد الله الشيعي وما يسميه علماء المغرب أبا عبد المشرقي الذي يعتبر ناشط مذهبهم في القيروان ومؤسس الدولة الفاطمية فيها ؟!

وقد بثرت القيروان ووقع الاهتمام بها في النص، فهي التي ستكون مركزا ومحطة لبوح يحيى بن إبراهيم بهمه، بمشروعه الإصلاحي، ونعتقد أن معالم هذا المشروع ما كانت لتنقدح في ذهنه وتتضح رؤاها، لو لم يقم بهذه الرحلة التي أو قفته وأرته عيانا ما يجري في الغرب الإسلامي والمشرق من حركات إصلاحية من أهم مراكزها في الغرب الإسلامي القيروان.

ومن تم نعلم أن المجتمع القيرواني كان في فترة رحلته يحتل الصدارة في منطقة المغرب العربي بصفة عامة، وقد دامت هذه الهيمنة الحضارية من بداية تأسيسه سنة 50 هـ إلى منتصف القرن الخامس، فهو مجتمع متحضر وإشعاعه على المنطقة بأسرها في هذه الفترة لا يمكن نكرانه، وتحضره متأت وناجم عن وجود القيروان في ملتقى طرق المواصلات، تجبى إليها الخيرات من كل جهة، مما جعل تجارتها تزدهر، واستتبع رواج السلع ازدهار الثقافة العربية الإسلامية. فمدينة القيروان، حسب عبد الواحد المراكشي، كانت دار العلم بالمغرب إليها ينتسب أكابر علمائها، وإليها رحلة أهله في طلب العلم[14]. لقد كان من رموز تلك الحركة العلمية أبو عمران الفاسي، فإلى مثل هؤلاء الأعلام كانت الرحلة العلمية للمغاربة في أوائل المائة الرابعة لتسترسل فيما بعد. ورحالتنا يحيى سيسير على نفس القانون والنهج الذي ينتهجه كل رحالة مسلم، فبمجرد ما تطأ قدماه تربة مدينة من المدن الإسلامية، فإن أول ما يقوم به هو التوجه إلى مسجدها الجامع، وهكذا ففي مسجد القيروان سيحضر يحيى حلقة أبي عمران الفاسي[15] (ت450 هـ). والحلقة العلمية مجال تربوي يتخلله الإلقاء والمحاضرة والمساءلة، ومن ثم سنلاحظ أن أسلوب النص سينتقل

---

[14]– عبد الواحد النمراكشي : المعجب، مطبعة السعادة بمصر، ص : 237.

[15]– اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي التقى فيها يحيي بن إبراهيم بالفقيه أبي عمران، 440، 445، 448، 427، 429. (النويري 172/22، وصبح الأعشى 189/5، وابن الأثير 58/9 والروض : 76) وتنص المصادر على أن أبا عمران توفي سنة 430 هـ! فلا بد أن يكون هذا اللقاء قد تم حسب رواية صاحب الروض (أي 427 أو 429). إحسان عباس الهامش 3 من تحقيق الجزء الرابع من البيان المغرب لابن عذاري المراكشي.

من الإخبار إلى الحوار، حوار يكشف الأهداف الإيديولوجية البعيدة لدروس أبي عمران الذي لم يسأل يحيى عن جزئيات الدرس الذي حضره ما فهم منه وما لم يفهم، بل سأله عن قبيلته وموطنها وعن تيارها السياسي والمذهب الفقهي الذي هي عليه. إنها أسئلة تشي بأغراض وتهدف إلى غايات "فما أشبهها بالاستخبارات الباطنية كما حررها الإمام الغزالي في كتابه "فضائح الباطنية[16]" ليحذر منها. جاء جواب يحيى بن إبراهيم بمثابة تقرير موجز عن تراجع الثقافة الإسلامية بأقاصي جنوب سوس حيث لم يبق من أصول الدين سوى آثار تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وأن التجارة التي كان من المفروض أن تقوم بوظيفتي تبادل السلع ونشر العلم، قد عنيت بالأولى وفرطت في الثانية بسبب أمية التجار. ومعالجة الوضع، في نظر يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة كدالة وزعيمها، يتطلب القيام بإصلاح عن طريق "تنظيم الدعوة مجددا إلى سنة الإسلام[17]". فهذا هو مشروع يحيى ومن مستلزماته عاملان؛ العصبية وهي متوفرة فيه فهو شيخ قبيلة كدالة، والعامل الثاني عقدي، وقد وعى به، ولهذا فهو يبحث له عن داعية مؤهل فقيه يعينه على إنجازه، وود لو كان ذلك الذي سيشد عضده من طلبة أبي عمران الذي من أهداف مؤسسته التعليمية تخريج أطر؛ فقهاء أو بلغة العصر بعثات ثقافية تعمل على نشر تعاليم المذهب المالكي السني ومواجهة وإبطال بدع الخوارج والشيعة والبورغواطيين المتناثرين هنا

---

[16]- عبد الله العروي : المرجع نفسه، ص : 113.

[17]- نفسه ص : 111.

وهناك، وتبليغ الدعوة لمن لم تصل إليهم، أو وصلت إليهم فلم يأخذوها بقوة وبعد فترة امحت معالمها أو كادت. لم يجد أبو عمران في الطبقة التي أدركها يحيى تدرس عنده من لديه استعداد للمغامرة والقيام بمهمة التفقيه في أعماق الصحاري النائية، ولعلهم كانوا يفضلون العمل في الأمصار أو البوادي القريبة منها أو من مواطنهم، ومن ثم وجهه مصحوبا برسالة، والرسالة بينة على تزكية المشروع من قبل عالم جليل، كما أن الكتابة في حد ذاتها رمز وتجسيد للمشروع، قلت وجه أبو عمران يحيى بن إبراهيم إلى طالب من طلبته بسوس يدعى وجاج بن زلو اللمطي (ت 445 هـ)، ووجاج هذا سبق له أن درس في أغمات وشارك في جهاد البورغواطيين[18] قبل أن ينتقل إلى القيروان حيث سيدرس على ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ) الذي كان يوجه تلامذته من مصامدة المغرب الأقصى إلى جهاد بورغواطة [19] التي كانت تسيطر آنذاك على أرض تامسنا وما إليها. أسس وجاج بسوس رباط أكلو [20] بمجرد رجوعه من

[18]– كان وكاك من تلامذة محمد بن تيسييت بأغمات قبل قيام المرابطين، وكان من طلبة هذا الشيخ الذي جاهد برغواطة "الهامش رقم 24 ص :89 من كتاب التشوف" والمعسول 30/11.

[19]– محمد المنوني ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس، في المناهل، سنة 1976، العدد 6، ص. 235، كان ابن أبي زيد يحض الطلبة من المصامدة على جهاد بورغواطة، وقد استشاروا أستاذهم فقال لهم: "إن كانت لكم بهم مقدرة فجاهدوهم، على أن تقدموا منكم أكثركم قبيلا، وبعدما عادوا من رحلتهم نظموا شؤونهم وفق توصية شيخهم وشرعوا في قتال بورغواطة" رسالة دلائل القبلة في نفس الإحالة.

[20]– يقع في الشمال الغربي لمدينة تيزنيت على الشاطئ.

القيروان، وتعتبر هذه بداية تنظيم الحركة التعليمية بسوس[21]. فتلقاء هذا الرباط توجه يحيى ليجد ترحيبا وإكراما من وجاج. وينتقل يحيى من تأبط الرسالة إلى خطوة أخرى من الخطوات العملية لإنجاز مشروعه، حيث سيرافق فقيها وداعية اختاره له العالم وجاج من أنجب تلامذته، إنه عبد الله بن ياسين الذي سيمتد به إشعاع المدرسة الوكاكية إلى أقاصي جنوب سوس المسامة لملكة السودان.

الفقرة الثالثة: وتتعلق بانضمام عبد الله بن ياسين إلى مشروع يحيى بن إبراهيم وسيعطيه بل سيشحنه بدفقه قوية على المستويين النظري والعلمي.

فقد اقتدى هذا المصلح في الرباط الذي شيده للدعوة والعلم بمسار الدعوة النبوية التي انتهجتها كل الرباطات، فأقطابها مقتنعون بأن اتباع أقوال الرسول عليه السلام واحتذاء أفعاله كفيلة بتنزل البركة وضمان التوفيق والنجاح. ولو أن

---

[21]- يقول المختار السوسي عنها: "هي أول مدرسة عرفها التاريخ إلى الآن في بادية المغرب، كانت تسمى الرباط ويسمى سكانها مرابطين، وإن كان ما يعرفه التاريخ اليوم عن تلك الأولية لا يدل على أنها هي الأولى في الواقع، فإن هناك بصيصا يتراءى منه أن حركة علمية موجودة مع مدرسة وجاج هذه وربما كانت قبلها، ولا حركة علمية بلا مدرسة، وكانت المساجد من قديم هي عين المدارس إن كانت فيها الدراسة" سوس العالمة ص: 17.

وتنبغي الإشارة إلى أن أول ما ظهرت المدارس في العالم الإسلامي، في خراسان في أوائل القرن 11 الميلادي وبعد ذلك أخذت تنتشر في المشرق. وقد دعت مقاومة السلاجقة لبدع الشيعة ونشر المذهب السني إلى تأسيس مجموعة من المدارس.

أما بالنسبة للمغرب فإن رباط وكاك كان عبارة عن دار يقول ابن الزيات، في ترجمته لوكاك:"فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه" التشوف، ص: 89.

عبد الله بن ياسين لم يقتف هذا الأثر ويستلهمه ويسر على نهجه ما كان ليستهوي صنهاجة، وما كانوا ليعترفوا بتعليمه ولما حصلت به تربية.[22]

كان التعليم في رباطه يسير على نفس نظام رباط وجاج بن زلو الذي استفاد من أسلوب التعليم في القيروان، تعليم ينبذ التعصب القبلي فعبد الله مصمودي في صنهاجة، ومن فلسفة هذا التعليم وأهدافه البعيدة ضمان الوحدة، فمواده تسري في حناياها هذه الغاية وهي قائمة على إقراء كتاب الله، وتعلم العقيدة والتفقه بالفقه المالكي، أما الكتب المعتمدة فهي الموطأ، ومصنفات ابن أبي زيد القيرواني التي ارتبط بها المصامدة أيما ارتباط، كرسالة ابن أبي زيد القيرواني، ونوادره، ومختصره للمدونة. فعن هذين المصدرين الأخيرين يقول عياض "وعلى كتابي ابن أبي زيد هذين المعول بالمغرب في التفقه[23]".

أما طريقة تدريسه فقد اصطلحت فيها النظريتان التعليميتان الأندلسية والقيروانية التي من مدامكها رسالة ابن أبي زيد إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن[24]"، وطريقة أبي عمران في تقريب القضايا الكلامية إلى عقول العامة وأجوبته بقدر فهم المستفسرين[25] والمتلقين.

---

[22]- عبد الله العروي : المرجع نفسه، ص : 113.

[23]- القاضي عياض : المدارك 494/4.

[24]- ذكرها عياض من بين مصنفات ابن أبي زيد ولا يعرف عنها شيء.

[25]- ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديد، البيضاء، 1984، ص : 87-89.

يقول عثمان الكعاك عن التعليم الرباطي: "التعليم الرباطي بسيط كبساطة الإسلام الأولى، يقوم على حفظ القرآن وتفسيره في بساطة رائعة مع ما تمس إليه الحاجة من العلوم الآلية التي لابد منها. فهو تعليم عملي فوق برنامج الكتاب ودون برنامج الجوامع. وتعاليم الرباط رائعة في بساطتها. وهي التعاليم السلفية أي تعاليم الإسلام الأول. فالتفسير ظاهري أي مقيد بخصوص اللفظ لا بمطلق المعنى. مما دعا خصوم المرابطين إلى نعتهم بالمجسمة والمشبهة. وتعليم العقائد عملي أكثر منه فلسفي ليس فيه كلام المعتزلة ولا أسرار الشيعة. وتعليم الفقه سهل خال من التشعب ومن الصور الخيالية النادرة ومن الحيل الشرعية. فدروس الرباط بسيطة مطبقة على عقول المسلمين الجدد من بربر وزنوج.

وكل العمل الرباطي قائم على الدعاية ونشر الإسلام المبسط ومقاومة البدع وتنقية العقيدة والأعمال مما علق بها من متبقيات الوثنية، أو تسرب إليها من شعائر المجوس والنصارى واليهود. ونبوغ ابن ياسين يتبين لنا في معرفته نفسية مخاطبيه من صنهاجة وتيسير التعاليم الإسلامية الحقيقية لدخول قلوبهم وعقولهم. فنجح هذا النجاح الباهر واعتبر من أكبر مصلحي الإسلام وأنبه مناصريه[26]."

وهكذا نكون قد وتقنا نص الحلل الموشية المنسوب لمؤلف مجهول اعتمادا على منهج المحدثين والأصوليين، وعضدنا هذا التوثيق بقراءة أدبية

---

[26]– عثمان الكعاك : نفسه، ص : 45-46.

ربطت الخبر الذي جاء في شكل حكاية بالواقع، بالتاريخ، فبه ملأنا فجوات الحكي، وبمعطياته مددنا العنان مستكنهين رموزه المحيلة على المكان أو الزمان أو الأشخاص. لقد تضافرت جميع تقنيات الحكي على إنضاج الحدث – الوحدة – التي مرت بمرحلة الخاطرة فالفكرة فالرؤيا الواضحة فالمشروع ثم تمثلت وتجسدت على أرض الواقع. لقد كان يحيى بطل زعامة صنهاجة، ومثل عبد الله بن ياسين السلطة العلمية – الإيديولوجية – ورحم الله ابن خلدون الذي أشار في مقدمته إلى أن الدين إذا انضاف إلى عصبية الدولة فإنه يمتنها ويقويها.

يقول المختار السوسي إذا كان عبد الرحمان الداخل صقر قريش، فإن عبد الله بن ياسين صقر سوس. إن هذه الذاكرة السوسية الزاخرة هي التي جعلت المختار السوسي يتلذذ بالمعاني البعيدة الثاوية فيما وراء المآثر التاريخية لسوس المؤصلة للوحدة المغربية، ويتغنى بخبء جمالية الأمكنة. يقول رحمه الله أثناء زيارته لرباط أكلو : "ركبنا متوجهين إلى زاوية العلامة وكاك، لأن عميدها الأستاذ سيدي الطاهر السماهري في انتظارنا، كان النسيم عليلا وهواء البحر الطيب يتلقانا بلطفه مرحبا، وهي نسمة من نسمات الروح الوكاكية هي التي ترحب بأحد عشاق تراثها في سوس فترفرف فرحا بنا، اللهم اجعلنا من أهل ذلك التراث حقا... – إلى أن يقول بأسى وأسف– رجعت من هذه الجولة وكلي ذكريات، فقلت ليت شعري أين مكان الرابطة التي بناها الشيخ وكاك هنا؟ ثم سألت هل بقي مكان ينسب إلى الشيخ؟ فقيل لي إن هاهنا دارا تنسب إليه من

قديم، وفيها ينزل بعض زواره، ولا يسكنها إلا نساء بصدد خدمة الزائرين، وقد كان فيها قبل اليوم بناء بالآجر، فقلت لعلها الرابطة أو بعضها. وهكذا ذهب الشيخ وكاك وذهبت كل آثاره، وكلما سألت عن أي أمر من آثاره هناك لا أجاب إلا بالنفي، فقلت هكذا ذهب من ربى مؤسس الدول ابن ياسين صقر سوس إذا كان عبد الرحمان الداخل صقر قريش[27]".

---

[27]– محمد المختار السوسي : انظر خلال جزولة، تطوان. د. ت. ج1/74–79.



تمثل هذه الصورة الأستاذ العلامة السيد حسن الزهراوي، وإلى جانبه الأستاذ إبراهيم الهلالي نائب مدير الجامعة اليوسفية في عهد الشيخ الرحالي الفاروق.